الزلزال
حِكَمٌ وفوائد

عمر الحاج مسعود

إنَّ كلَّ التَّغيُّرات الَّتي تحدث في الكون كالزِّلازل والأعاصير والعواصف والفيضانات لهي من آيات الله العظيمة الدَّالةِ على عظمته وقوَّته وجبروته وكبريائه، فينبغي للعاقل أن يقف عندها، ويتدبَّرَها ببصيرته، ويحذرَ القسوةَ والغفلةَ المانعتين من التَّدبُّر والاتِّعاظ.

وسأذكِّر إخواني القرَّاء في هذه المقالة بأهمِّ حكم الزِّلزال وفوائده، علَّها تكون موعظةً للمؤمنين وتنبيهًا للغافلين وتحذيرًا للمجرمين، والله الهادي إلى الحقِّ المبين.

فمن ذلك:

1. بيانُ عظمة الله - عز وجل - وقدرته وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير وفعَّال لما يريد، ولواسع علمه وكمال قدرته لا يمتنع عليه أمرٌ ولا يعجزه شيءٌ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [سورة يس]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ٤٤﴾ [سورة فاطر]، وروى البخاري (4628) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ ﷺ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِكَ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65] قال رَسولُ اللهِ ﷺ «هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ».

وله سبحانه وتعالى في خلقه وحكمه وقضائه وبلائه الحكمةُ البالغةُ والحجَّةُ الدَّامغة، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨﴾ [سورة القصص]، وكلُّ ذلك دليلٌ «على أنَّه هو وحده الفعَّالُ لما يريد المدبِّرُ لخلقه كيف يشاء، وأنَّ كلَّ ما في المملكة الإلهيَّة طوعُ قدرته وتحت مشيئته، وأنَّه ليس شيءٌ يستقِلُّ وحده بالفعل إلاَّ الله»[1].

2. التَّخويف من عذاب الله والتَّحذير من شؤم مخالفة أمره، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾ [سورة الإسراء]، أخرج الطَّبري في «تفسيره» (638/14) عن قتادة رحمه الله أنَّه قال: «إنَّ الله يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنْ آيَاتِهِ لَعَلَّهُمْ يُعْتِبونَ أَوْ يَذْكُرُونَ أَوْ يَرْجِعُونَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الكُوفَةَ رَجَفَتْ عَلَى عَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَأَعْتِبُوهُ»، استعتبكم: طلب منكم أن تُعتبوه، أي أن تُرضوه وتُزيلوا عتبَه وغضبَه عليكم، ويكون ذلك بالتَّوبة والاستغفار.

ويخوِّف الله سبحانه وتعالى عباده بكسوف الشَّمس وخسوف القمر، كما يخوِّفهم بالنَّار وعذابها وبالعقوبات الَّتي أنزلها بالكفَّار والمجرمين، «والتخويف يتضمَّن الأمرَ بطاعته، والنَّهيَ عن معصيته»[2]، ولهذا أرشد ﷺ أصحابه رضي الله عنهم إلى الذِّكر والصَّلاة والصَّدقة والاستغفار درءًا للعقاب الذي قد ينزل.

فعن أبي مُوسى قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ في زمنِ النَّبيِّ ﷺ فَقَامَ فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكونَ السَّاعَةُ حَتَّى أَتَى المَسْجِدَ فَقَامَ يُصَلِّي بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ يَفْعَلُهُ فِي صَلَاةٍ قَطُّ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي يُرْسِلُ اللهُ لا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ اللهَ يُرْسِلُهَا يُخَوِّفُ بِهَا عِبادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ» رواه البخاري (1059) ومسلم (912).

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (169/35): «فذكر أنَّ من حكمة ذلك تخويفَ العباد كما يكون تخويفهم في سائر الآيات كالرِّياح الشَّديدة والزَّلازل والجدب والأمطار المتواترة، ونحو ذلك من الأسباب الَّتي قد تكون عذابًا؛ كما عذَّب الله أُممًا بالرِّيح والصَّيحة والطُّوفان، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: 40]، وقد قال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾ [سورة الإسراء]، وإخباره بأنَّه يُخوِّف عباده بذلك يبيِّن أنَّه قد يكون سببًا لعذاب ينزل كالرِّياح العاصفة الشَّديدة».

وهذا يكون إذا عصوه وخالفوا أمره، قال ابن بطَّال رحمه الله في شرح البخاري (26/3): «والتَّخويف والوعيد بهذه الآيات إنَّما يكون عند المجاهرة بالمعاصي والإعلان بها».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ١٠﴾ [سورة محمد]، وقال عن أهل النار: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [سورة الزمر]، قال ابن تيمية في «منهاج السنة» (299/5): «فخوَّف العبادَ مُطلقًا، وأمرهم بتقواه لئلاَّ ينزل المَخُوف، وأرسل الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، والإنذار هو الإعلام بما يُخاف منه، وقد وُجدت المَخُوفات في الدُّنيا، وعاقب الله على الذُّنوب أممًا كثيرة كما قصَّه في كتابه، وكما شُوهدَ من الآيات».

وروى البخاري (3206) ومسلم

(1) «مفتاح دار السعادة» لابن القيِّم (1280/2).

(2) «النبوات» لابن تيمية (793/2).

(899) عن عائشة رضي الله عنها قالت: وإذا تخيَّلَت السَّماءُ تغيَّرَ لونُه - أي النَّبيّ صلى الله عليه وسلم - وخرج ودخل وأقبل وأدْبَرَ، فإذا مطرت سُرِّيَ عنه، فعرفْتُ ذلك في وجهه، قالت عائشةُ: فسألتُهُ فقال: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كما قال قَـوْمُ عَـاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: 24]»، وفي رواية لمسلم: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي».

فكان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم - مع كونه أعلمَ الخلق بالله وأتقاهم له - إذا رأى هذه الآيات الَّتي فيها التَّخويف والإنـذار، خاف العذاب على أمَّته، وفزع إلى ذكر ربِّه ودعائه واستغفاره، وقد كان من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ» رواه مسلم (2739).

أمَّا الكفَّار الَّذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون؛ فإنَّهم يظنُّون أنَّ ذلك من فعل الطَّبيعة، ويجعلونه مناسبةً للفرجة والتَّسلِّي والتَّصوير وتناقل الأخبار، وصدق الله إذ قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء].

وإن تعجَبْ فعَجَبٌ تقليدُ بعض المسلمين الكفَّارَ في ذلك، حيث جرَّدوا الزِّلزالَ وسائرَ الآيات الأخرى من المعاني الإيمانيَّة والحِكَم الشَّرعيَّة، وأعطوها صِبغةً ماديَّةً بَحْتة، فلا نسمع في وسائل الإعلام المختلفة ولا نقرأ إلاَّ أنَّ الزِّلزال كارثةٌ طبيعيَّة، قوَّته كذا وكذا، مع إحصاء عدد القتلى والجرحى والخسائر الماديَّة، ولا نجد ذكرًا لعظمة الله وقدرته وأنَّ ذلك بمشيئته، كما أنَّنا لا نسمع شيئًا عن التَّرغيب في التَّوبة إلى الله والاعتصام بحبله والفزع إلى دعائه واستغفاره، والتَّرهيب من الإصرار على معصيته والصَّدِّ عن سبيله ومخالفة رسوله.

وتأمَّلْ في موقف الخليفة الرَّاشد المحدَّث الملْهَم عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه لَمَّا زُلزلت المدينة في عهده، كيف أخبر أنَّ سببَ ذلك هو الإحداث والمخالفة، فحذَّر النَّاسَ وهدَّدهم - إن عادت - بهجرهم وترك مساكنتهم فيها، فعن صَفيَّةَ بنت أبي عُبَيد قالت: زُلْزِلَت المدينةُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ مَا هَذَا؟ مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ، لَئِنْ عَادَتْ لا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا» رواه ابن أبي شيبة (8335) وابن أبي الدُّنيا في «العقوبات» (20)، وسنده صحيح.

وما سبق لا ينفي أن يكون للزِّلزال وقتٌ معيَّن - كالكسوف والخسوف -، فيقع اتِّفاقٌ بين الوقت الَّذي تتنفَّس فيه الأرض وتُزلزل بإذن ربِّها وبين إرادة الله تخويفَ عباده وعقوبة بعضهم، والله عليم حكيم، قال ابن القيِّم في «مفتاح دار السعادة» (630/2): «ولما كانت الرِّياح تجول فيها - يعني في الأرض - وتدخل في تجاويفها، وتُحدث فيها الأبخرة، فتختنق الرِّياح، ويتعذَّر عليها المنْفَذ أذن الله سبحانه لها في الأحيان بالتَّنفُّس، فتُحدث فيها الزَّلازلَ العظامَ، فيَحدثُ من ذلك لعباده الخوفُ والخشيةُ والإنابةُ والإقلاعُ عن معاصيه والتَّضرُّعُ إليه والنَّدمُ».

وقال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (175/35 - 176): «وما أخبر به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يُنافي لكوْن الكسوف له وقت محدَّد يكون فيه، حيث لا يكون كسوف الشَّمس إلاَّ في آخر الشَّهر ليلة السِّرار، ولا يكون خسوف القمر إلاَّ في وسط الشَّهر وليالي الإبدار، ومن ادَّعى خلاف ذلك من المتفقِّهة أو العامَّة فلعدم علمه بالحساب... فإذا كان الكسوف له أجلٌ مسمًّى لم يُناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببًا لما يقتضيه من عذاب وغيره لمن يُعذِّب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممَّن ينزل الله به ذلك، كما أنَّ تعذيب الله لمن عذَّبه بالرِّيح الشَّديدة البـاردة - كقوم عاد - كانت في الوقت المناسب، وهو آخر الشِّتاء كما ذكر ذلك أهلُ التَّفسير وقصص الأنبياء».

3. الابتلاء والامتحان، فالله تعالى يبلو عباده بالسَّرَّاء والضَّرَّاء والخير والشَّرِّ ليعلم المؤمنَ من الكافر والصَّادق من الكاذب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت].

إنَّ المؤمن الصَّادق ينسب الزِّلزال إلى فعل الله ومشيئته وقدرته، والكافر

ينسبه إلى الطَّبيعة وغضبها، روى البخاري (846) ومسلم (71) عن رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

والزِّلزال يكون تطهيرًا للمؤمنين، وتكفيرًا لسيِّئاتهم ورفعًا لدرجاتهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة]، وروى أحمد (19678) وأبو داود (4278) وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (959) أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا القَتْلُ وَالبَلاَبِلُ وَالزَّلاَزِلُ»، كما يكون انتقامًا من الكافرين المعاندين، فقد أغرق الله قومَ نوح عليه السلام، وأرسل الرِّيحَ العقيمَ على قوم عاد وأخذت قومَ ثمود الرَّجفةُ ـ وهي الزِّلزال الشَّديد الَّذي ترجف منه الأرض وتضطرب اضطرابًا شديدًا ـ، وقَلَبَ قرى قوم لوطٍ ؛ فجعل عاليَهَا سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجِّيل، وأغرق فرعون وقومه في البحر، وخَسَف بقارون وداره الأرض، وأهلك القرونَ من بعد نوح بأنواع من العقوبات جزاءً وفاقًا، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سُورَةُ العَنكَبُوت].

4. اتِّخاذ الشُّهداء، فمن مات من أهل التَّوحيد تحت الهدْم، ولم يكن في معصية الله[3] نال منزلتهم، وكانت خاتمتُه حسنةً وعاقبتُه حميدةً، روى البخاري (653) ومسلم (1914) أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ المَطْعُونُ وَالمَبْطُونُ وَالغَرِيقُ وَصَاحِبُ الهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فهؤلاء ـ ومنهم الَّذي يموت في الزِّلزال وينهدم عليه بيتُه ـ لهم منزلة الشَّهيد الَّذي يقتل في جهاد الكُفَّار، ويعطَون مثلَ أجره، لكن لا تجري عليهم أحكامُه الدُّنيويَّة، بل يُغسَّلون ويُكفَّنون ويُصلَّى عليهم[4].

5. الاعتبارُ بما أصاب النَّاس من عقوبات والاتِّعاظُ بما حلَّ بهم من مَثُلات، فيحذرُ المعتبرُ أن يَفجَأه الزِّلزالُ وهو في غَمْرته ساهٍ وفي سكرته عَمِهٌ، ويخافُ من ذنبه، ولا يطمئنُّ إلى نفسه ولا يأمن مكرَ ربِّه، وبخاصَّة مع ترك الواجبات واقتراف السَّيِّئات وفشوِّ الموبقات، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سُورَةُ النَّحل]، وروى البخاريّ (3346) ومسلم (2880) أنَّ زينبَ بنتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبيِّ ﷺ قالتْ: خرج رسولُ الله ﷺ يومًا فزعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذه»، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعه الإِبْهَام وَالَّتي تَليهَا، قَالَت: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ».

إنَّ فئامًا من النَّاس تصيبُهم زلازلُ شديدةٌ ولا يعتبرون، وتَحُل بهم قوارعُ أليمةٌ ولا يتوبون، بل يصرُّون على ترك الصَّلاة وتناولِ المسكرات والمخدِّرات والتَّبرُّج والعُرْي والمجاهرة بالمُوبقات، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سُورَةُ التَّوبَة].

ومن الاعتبار أن لا يغترَّ الإنسانُ بقوَّته وماله وداره، وهو يرى الموتى والجَرحى والبيوتَ المهدَّمةَ والقصورَ الخاويةَ على عروشها والمدنَ المدكوكةَ عن آخرها، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [سُورَةُ يُونُس]، وقد كانت عامرةً زاهرةً، فصارت عبرةً للمعتبرين، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ الحَجّ].

في سنة (1425هـ) الموافق لسنة (2004م) وقع زلزالٌ عظيم في أندونسيا تحت البحر، قوته (9 درجات بمقياس ريختر)، فَنَتَج عنه أمواجٌ كالجبال وتحوَّلت في دقائق معدودة إلى

(3) انظر «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (293/24).
(4) انظر «شرح مسلم» للنووي (164/2)، «المغني» لابن قدامة (399/2).

طوفان بحري ـ أسموه بـ «تسونامي»[5] ـ على طول سواحل اليابسة المطلَّة على المحيط الهندي، ووصل طولُ موجته إلى (35 متراً)، دمَّرَ بإذن الله سواحلَ ومُدنا بأكملها وخلَّف أكثر من (230000 قتيل) ومئات الآلاف من المفقودين والمشرَّدين، وأغرق المناطق السَّاحليَّة، وترك مشاهدَ مُرعبةً ومناظرَ مُوحشةً.

وفي سنة (1432 هـ) الموافق لسنة (2011 م) أرسل الله ﷻ زلزالاً عنيفًا مدمِّرًا في المحيط الهادي بقوَّة (8,9 درجات)، ضرب سواحل اليابان وأحدث أمواجًا عاتية ـ تسونامي ـ دمَّرت بإذن ربِّها العبادَ والبلاد، وكانت نتيجة ذلك أكثر من (15 ألف قتيل) وما يقارب (3000 جريح) وأكثر من (16000 مفقود)، وأغلقت مصانع ومطارات ومحطَّات للطَّاقة النَّوويَّة.

إنَّ الَّذي فعل هذا هو الله الفعَّال لما يريد، ولا يستطيع أهلُ الأرض ـ بما لديهم من علم وقوَّة وتطوُّر ـ أن يردُّوا أمرَه أو يَفرُّوا من قَدَره، بل يتبيَّنُ لهم أنَّه هو القويُّ العزيزُ، وأنَّهم هم الفقراءُ الضُّعفاء، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [سُورَةُ فَاطِر].

فليعتبر العاقل بهذا الخطب الجسيم، وليحذر أخذ الرَّبِّ العليِّ العظيم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [سُورَةُ غَافِر]، وروى البخاري (3380) ومسلم (2980) عن عَبْد الله ابن عمرَ أنَّه قال: مَرَرْنَا مع رسولِ الله ﷺ عَلَى الحِجْرِ[6] فَقَال لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ـ وفي رواية: لا تدخُلوا على هؤلاء المعذَّبين ـ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُم ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا»، زجر أي ناقتَه وساقها سَوْقًا شديدًا، حتَّى خلَّفها أي جاوز الدِّيار.

فنهى ﷺ عن الدُّخول إلى ديار الكفَّار الَّتي دمَّرها الله ﷻ وأهلك أهلَها ـ إلاَّ إذا كان الدَّاخل باكيًا خائفًا ـ حذرًا من أن يُصيبَ الدَّاخلَ مثلُ ما أصابهم من العقاب والنَّكال.

قال ابن رجب في «فتح الباري» (2/433 ـ 434): «هذا الحديث نصٌّ في المنع من الدُّخول على مواضع العذاب إلاَّ على أكمل حالات الخشوع والاعتبار، وهو البكاءُ من خشية الله وخوف عقابه الَّذي نزل بمن كان في تلك البقعة، وأنَّ الدُّخول على غير هذا الوجه يخشى منه إصابة العذاب الَّذي أصابهم، وفي هذا تحذير من الغفلة عن تدبُّر الآيات، فمن رأى ما حلَّ بالعصاة ولم يتَنَبَّه بذلك من غفلته، ولم يتفكَّرْ في حالهم ويعتبرْ بهم، فليحذر من حلول العقوبة به، فإنَّها إنَّما حلَّت بالعصاة لغفلتهم عن التَّدبُّر وإهمالهم اليقظةَ والتذكُّر».

وفي الحديث معرفة «خطأ هؤلاء الجهَّال الَّذين يذهبون إلى ديار ثمود للتَّفرُّج والتَّنزُّه ويبقَون فيها أيَّامًا ينظرون آثارَهم القديمةَ، فإنَّ ذلك معصيةٌ للرَّسول ﷺ ومخالفةٌ لهديه وسنَّته، فإنَّه ﷺ لمَّا مرَّ بهذه الدِّيَّار أسرع وقنَّع رأسَه ﷺ حتَّى جاوز الواديَ»[7].

6. تذكُّرُ زلزالِ يوم القيامة وقوَّته وهوله، فيُحدث ذلك للعَبد ذكرًا وخوفًا وإنابةً وحذرًا واستعدادًا، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سُورَةُ الحَجّ]، فزَلزلةُ السَّاعة أمرٌ كبيرٌ شأنُه، جليلٌ خطبُه، وهذا هو علَّة الأمر بتقوى الرَّبِّ ﷻ، وقال: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾، تحدّث بما عمل النَّاس على ظهرها من خير أو شرٍّ، وتنطق عليهم بالحقِّ، ولا يغيب عنها شيءٌ بإذن ربِّها.

فالواجب على العبد أن يجعل ذلك اليومَ نُصبَ عينيه، ويُعدَّ له عُدَّته، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [سُورَةُ الزَّلزَلَة]، كما يجب عليه أن يسارعَ إلى التَّوبة ويبادرَ بالأعمال الصَّالحة، قبل أن يحالَ بينَه وبينَها بفتنة أو عذاب أو مرض أو موت ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ [سُورَةُ الزُّمَر].

وفَّقنا الله لفعل الخيرات وأعاننا على ترك المنكرات، إنَّه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدَّعوات.

(5) تسونامي كلمة يبانية، «تسو»: الكبير، «نامي»: الموج، يعني مجموعة من الأمواج الكبيرة العاتية.

(6) الحجر: ديار ثمود الكائنة بين المدينه والشَّام.

(7) «شرح رياض الصَّالحين» لابن عثيمين (4/578).